وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

هؤلاء الرهط الكرام هم حقيقة حقة قديمة امتدت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها نبي بعد نبي، رسالة واحدة وأمة واحدة مهما اختلفت صور من طقوسها العملية عبادية وسواها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ . . . فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾:

﴿بِهَا﴾ هنا تعني مثلث ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة الأنكاد من قوم لُدٍّ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ إيماناً بها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم غيرهم من الناس، كالأنصار المدنيين، ومنهم من أسلم من الفرس وقد مدحهم رسول الله ﷺ فيمن مدح في مختلف المجالات، ومن أقواله فيهم: «رحم الله إخواني. . .» ومنهم - كأفضلهم - أصحاب المهدي عجَّل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه، وسائر المؤمنين به.

فالدولة المهدوية العالمية هي الموكَّلة بصورة مطبقة مطلقة بالإيمان والتطبيق لهذه الرسالة السامية، فهي بشارة للمؤمنين بها على طول الخط ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[2].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

وترى الرسول إلى الرسل ورأس زاوية الرسالة والنبوة والإمامة كيف يؤمَر أن يقتدي بهؤلاء النبيين الذين هم بأجمعهم أدنى منه في كلّ شيء؟.

هنا «هداهم الله» تختص المقتدى به بهدى الله، التي يحملها أنبياء الله،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

تبييناً أن الرسل موكب واحد في حمل هدى الله، ليس أحد منهم بِدعاً فيها اللهم إلّا في ميزات بدرجات ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾[١].

ومن هُداهم الربانية عدم سؤالهم أجراً على أعباء الرسالة، فـ ﴿قُلْ﴾ أنت الحامل الأخير لشرعة الله ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ اقتداءً بسنة الرسالات الإلهية مهما كان المقتدي أقوى هدى من كلّ الرسل في كلّ الرسالات، فـ ﴿إِنْ هُوَ﴾ الرسول «وإن هو» القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ وليس للذكرى أجر فإنها واجب أهله.

ذلك، وبصورة عامة «لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الاقتداء، لأنه المنهج الأوضح والمقصد الأصح قال الله تعالى لأعز خلقه محمد ﷺ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فلو كان لدين الله مسلك أقوم من الاقتداء لندب أولياءه وأنبياءه إليه»[٢] فـ «أحسن الهدى هدى الأنبياء»[٣] لأنها هدى الله.

فلما يؤمر رسول الهدى ﷺ أن يقتدي بهدى الذين هداهم الله، فأحرى لسواه وأوجب أن يقتدي بهداه فإنها أفضل الهدى وأكملها فإنها خاتمة الهدى الرسالية من الله، ثم الذين يحملون هداه الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.
(٢) في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام ولا طريق..
(٣) نور الثقلين ١: ٧٤٤ في تفسير القمي خطبة له ﷺ، وفيه عن النهج «فاقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى».

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾:

هنا ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ في ربوبيته برحيميته المقتضية لزاماً بعث رسله، وفي الحج (٧٤) والزمر (٦٧) ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ في

توحيده وألّا شريك له في ألوهيته، وهذه الآية بما بعدها مربوطة النياط بما قبلها من آيات الحجاج على المشركين الناكرين لرسالة البشر، وأهل الكتاب الناكرين لهذه الرسالة الأخيرة، وينكر ثالث أن النبوة وحي من الله على بشر سواء أكان النازل به ملكاً أو بشراً!.

إذاً فـ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ تحمل ثالوثاً من النكران.

فمن الناس - وهم ثالث ثلاثة - من يخيل إليهم أن الوحي ارتقاء عقلي للإنسان، دون إيحاء إلهي خاص، فالنابغ من الإنسان نابع من عقليته البارعة ما يتسمى وحياً، فما هو إلّا وحي العقل بنضوجه وارتقائه إلى مرقى الكمال الطليق لحدِّ المعرفة الطليقة حيث لا يبقى له حاجب وستار عن الحقائق.

ولكنهم غفلوا عن أن ذلك خاص بنطاق الكليات العقلية، فليس للعقل مهما نضج وعرج معارج الكمال أن يعرف جزئيات الموضوعات والأحكام الموحيات إلى الرسل، ثم الأحكام لا تتبع كلها المصالح الواقعية فإن قسماً منها ابتلائية، إضافة إلى سائر البراهين القاطعة إلى واقع الوحي الرسالي إلى الرسل.

وكما أن قدرْ الله حق قدره درجات، كذلك عدم قدره حق قدره دركات، تعم كافة التقصيرات بجنب الله عقيدياً وعملياً وفي لفظ القول.

فقدر الشيء أو الشخص هو منزلته المتميز بها عن غيره، والمنزلة الربوبية قضيتها ألا يسوى به سواه في أيٍّ من الأقدار، فليوحَّد في ألوهيته وكافة شؤون ربوبيته المقتضية إرسال رسله وابتعاث خلقه يوم الحساب لتحقيق كامل عدله بينهم.

فحق قدره ليس إلّا كما عرَّف نفسه وبين في شرعته، دون أن يوصف بقدر «فلا يوصف بقدر إلّا كان أعظم من ذلك»[1].

(١) نور الثقلين ١: ٧٤٤ عن أصول الكافي عن الفضيل بن يسار قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام =

إذاً فـ «إن الله ﷻ لا يقدر أحدٌ قدره»[١] في ذاته وصفاته وأفعاله، والواجب على عباده أن يقدروا قدره فيما عرف به نفسه وفيما فرضه أو حرمه.

فحق قدره هو حق وصفه بما حققه تعالى من أوصافه دون انتقاص منها ولا مساس من كرامته، وصفاً معرفياً ووصفاً لفظياً ووصفاً عملياً، وفي هذا المثلث يُقدر الله حق قدره أم لا يُقدر، فلا نكلف بمعرفته كما هو، ولا وصفه كما هو، بل وعبادته كما يستحقه، وذلك حق قدره بكماله وتمامه وما دونه عوان بين ﴿قَدَرُواْ﴾ و﴿مَا قَدَرُواْ﴾ ومن حق قدره فيما أنزل أن يحتل الموقع الأعلى من الدراسة فيه دون أن يجعل درساً جانبياً كما فعلته الحوزات الإسلامية، فقد مركزوا كلّ كتاب وما قدروا كتاب الله حتَّى هامشياً يفكر فيه ويتدبر.

فهم ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ مسّوا من كرامة ربانيته كأنه يجهل حاجة المكلفين إلى وحيه، أو يبخل على علمه، أو يعجز على علمه وسماحته، أو يظلم على قدرته وسماحته وعلمه، والقائلون ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ التاركون له، هم أتباع لهم بل هم أضل منهم وأنكى.

هنا ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ تعم كلّ القائلين ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ثم برهان ثان يخص أهل الكتاب منهم ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ. . .﴾[٢] وغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد أن يتقولوا هذه القولة تعصباً ضد الإسلام وهم المفضِّلون المشركين على المسلمين بنفس العصبية:

= يقول: إن الله لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فلا يوصف. . وفيه عن أبي جعفر عليه السلام مثله.

(١) المصدر عن إسحاق بن عمار قال قال أبو عبد الله عليه السلام أن الله. .

(٢) المصدر عن تفسير القمي في الآية قال: لم يبلغوا من عظمة الله أن يصفوه بصفة ﴿إِذْ قَالُواْ. . .﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾[1]، وهذه هي طبيعة الحال المتخلفة الشرسة للعصبية الجهلاء الحمقاء على حاضر الحال، قومية أو طائفية أو إقليمية أمّاهية، أنها إذا أصبحت حجة على أصحابها، ذريعة لتقبل أشباهها أنكروها عن بكرتها نكراناً للزاماتها.

فقد ينكر الكتابي كتابه إذا كان حجة لتصديق كتاب آخر، كما قد ينكر حسه أو فطرته أو عقليته أو علمه إذا كانت ذريعة لما يتنكره من جديد.

ذلك وقد يدعون - كما اليهود - أن الرسول السابق على رسولهم كان منهم في شرعتهم، ردّاً على النصارى وتثبيتاً لأصالتهم طول التاريخ الرسالي، حتى نزل التنديد الشديد بهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ... مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

ذلك، فغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد - في سلبياتهم وإيجابياتهم الحمقاء - أن ينكروا نزول الوحي على بشر بأسره ذريعة إلى نكران أفضل الوحي على محمد ﷺ، فهنا تبرز الحجة البالغة الإلهية تكذيباً لقولتهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ...﴾؟!.

ومكية الآية لا تنافي التعرُّض لأهل الكتاب إذا انتشرت دعوة الإسلام في الجزيرة وفيها أهل الكتاب، كما وكانوا يبثون دعايات ويدسون بين المشركين المختلطين بهم سفراً وحضراً، ثم الدعوة القرآنية عالمية تقتضي عامة الخطابات إنْ في مكة أو في المدينة.

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ٧٥-٧٦.

لقد قال الأولون ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾[1] استبعاداً لرسالة البشر، وأنكر الآخرون نزول كتاب بعد موسى وعيسى عليهما السلام كأن الله عاجز عنه بعدهما فـ ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى﴾[2] وقد تركتم نوره وهداه وراء ظهوركم ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ فاضية عن الوحي وهي فائضة بالوحي ﴿قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا﴾ حيث لا يظهر فيها وحي إذ حرفتموه ﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ﴾ منها، الذي لم تقدروا على إمحائه وتحريفه، ﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ﴾ في ذلك الوحي النور والهدى، وسائر الوحي قبل التوراة.

وهنا الخطاب في ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ﴾ هو قضية الخطاب في ﴿قُلۡ﴾ فـ ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ غياباً لا تناسب الخطاب ولا سيما العتاب الذي هو قضية الخطاب!.

فـ ﴿وَعُلِّمۡتُم...﴾ برهان قاطع آخر على إنزال كتاب الوحي، فإن من العلم ما ليس يكتسب بأية وسيلة متعوَّدة وقد علِّمتموه، وهو الفاصل بينكم وبين المشركين الذين لا يعلمون ما علِّمتم، فالصيغة الحاكية عن المشركين في القرآن هي: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ والحاكية عمن سواهم ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾

(١) سورة يس، الآية: ١٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٩ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه ويحك ولا على موسى؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ...﴾ [الأنعام: ٩١]. وفيه أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من يهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو محتسب فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ...﴾ [النساء: ١٥٣] فجثا رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ...﴾ [الأنعام: ٩١].

فلا سبيل لهؤلاء إلى نكران الوحي، بحجة أولى «من أنزل»... ولا ثانية ﴿وَعُلِّمْتُم﴾، فـ: من أنزل ومن علم؟:

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ عنهم إذ يعتقدون ولا يلفظون به ذريعة لنكران ما ينكرون.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم واهتراءهم، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ إلى نقمة الله ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وهكذا يواجَه من يعاند الحق في حجاجه اللجاج أن يُترك في خوضه الغامر دون أن يوسف عليه ويؤسى له، حيث ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1]، وذلك لا يقتضي ترك محاربتهم، فإن ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ هي فقط أمرٌ بتركهم في حقل الحجاج.

ذلك، وكلّ جملة من هذه مستقلة في حقولها، فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ تستقل في كافة الحقول، توحيدية وشركية وإلحادية، وفي حقل التوحيد توكلاً على الله لا سواه، واستعانة بالله لا سواه، أن يعيش الموحد ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قولاً بالقال والحال والأعمال ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ تركاً لما سوى الله.

وفي حقل الإلحاد والإشراك ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

فحين لا ينفع قول الحق لا تترك أنت قول الحق بل ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، وعلى أية حال أثَّر القول الحق أمّا أثر فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قولاً في نفسك وقولاً في حقل الدعاية، فعلى الداعية أن يعيش ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ دون أن يتركه على أية حال.

ذلك، فقد نرى أن لـ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أعداء جاهرين ظاهرين وآخرين يتقبلونه ولا يُقبلون إليه.

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

فالقائل ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ينكره أولاً، يتقلَّص ليتخلص منه على طول الخط، ثم يوجه نكرانه بأن الله جلَّ قدره هو فوق أن ينزل شيئاً لهذا الخلق الضئيل.

ثم القائل ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قد يحرفه كما يحب واقعياً أم دعائياً كما فعله المحرَّفون الكلم عن مواضعه في كتاب موسى والمسيح عليهما السلام، وفعل معهم القائلون أن القرآن محرَّف!.

ثم القائل ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ دون تحريف، القائل بأن القرآن هو الدليل الأوَّل يتركه قائلاً: أين نحن وتفهُّم كلام الله، إن له أهلاً خصوصاً لا يحل تفسيره إلّا لهم.

ثم القائل ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مع التصديق أنه ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[1] يحمل عليه الآراء تقديساً للأجلاء المفتين بخلافه، فليعنِ ما عنوه منه!.

وهكذا نرى ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ظليما أسيراً بأيدي الناس النسناس على مدار الزمن الرسالي، فلو أن ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كان هو المحور الأصيل لمُدَراء شرعة الله والمتشرعين بها، دونما حِوَلٍ عنه لم تحصل هذه الخلافات العارمة والاختلاقات المتشتتة.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[2] [3].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٣) راجع الفرقان ٢٥: ١١٥ تجد تفصيل البحث حول أممية الدعوة القرآنية.

. . تلك كتب للماضين، ماضين على مناهجها وغير ماضين ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ وكلّ كتب الله مباركة ولكن أين مبارك من مبارك؟.

فهذا المبارك تتِم بركته، وتُطم كافةَ المكلفين في كلّ حقول العلم والمعرفة والعمل الصالح إلى يوم الدين، ثم وليس بدعاً من الكتب بل هو ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الوحي، تصديقاً لصادق وحيها وتكذيباً للكاذب من تحريف أو تجديف.

وقد تلمح ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إضافة إلى وحدة السلسلة الكتابية للرسل، أن هذا الكتاب ناظر إليها مهيمن عليها، تصديقاً لصادقها وتكميلاً، وتكذيباً لكاذبها ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1]، ثم: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فمكة أم القرى في أصل التكوين اعتباراً بالكعبة المباركة حيث دُحيت الأرض من تحتها ومُكّت، فكلّ القرى طارئة عليها وهي أمها ومُخها، فقد اشتقت «مكة» من تمككت العظم أخرجت مخه، فهي مخ الأرض وأصلها ومنشؤها، كما وأنها أوّل بيت وضع للناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

ذلك وكما أن الأرض هي أم الكرات كلها بمعنى سبْقها عليها في خلقها فصبغها بسابغ المكان والمكانة لأصول المكلفين بين العالمين كما فصلت هذه السابقة السابغة في فصلت.

فهي أم القرى الرسالية في الكون كله، أعم مما هي أم القرى الأرضية، تحليقاً لواجهتها الروحية الرسالية على مكانات الرسالات كلها أرضية وسماوية.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.